بسم الله الرحمن الرحيم

[تفريغ المجلس ٣٩]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا- أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا ابتدأنا يوم أمس في شرح حديث أبي ذر الغفاري ﷺ، وهو الحديث الرابع والعشرون من كتاب "الأربعين" للإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه ﷻ أنَّه قالَ: { يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ

الْبَحْرِ. يَا عِبَادِي، إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ}. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢٥٧٧].

يقول فيه أبو ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)، وهذا الشطر قد أنهينا الكلام عليه.

[حقيقة الضلال]

ثم قال ﷻ (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) الضال مأخوذ من فعل ضلّ يضِل ضلالا، فهو ضال، والمراد به الميل عن طريق الحق، والصراط المستقيم، والسبيل القويم، صراط الله رب العالمين، وعن الهدى الذي جاء به النبي ﷺ من عند الله ﷻ، ولفظة (ضلّ) في اللغة هي: الميل والانحراف عن الصواب، ويقال ضلّ الطريق إذا ضيعه وانحرف عنه، وتاه به ولم يهتد إلى مرغوبه ومطلوبه، وإلى سبيل سفره وبحثه، ولهذا وُجد من رواة الحديث من يلقب بالضّال -عبد الكريم بن معاوية- أتى مكة فتاه في طريق مكة ولم يهتد إلى الطريق، وضلّ في طرقاتها فلقّب بالضال، يعني الذي ضيع الطريق.

لكن المراد هنا الضلال المقابل للهدى، فالهدى ضده الضلال، كما أن الرشد ضده الغي، فالمراد بالضلال عدم الهدى، ضلّ هنا أي انحرف عن طريق الحق، وعن صراط الله ﷻ، وعن سبيل الهداية.

[وجيه قوله ﷺ (كلكم ضال) مع كون الإنسان يولد على الفطرة]

(كلكم ضال) قد يقال: إن هذه العبارة قد تخالف حديث النبي ﷺ (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١] فالمراد هنا أن المولود أول ما يولد يولد على الفطرة، وأيضا قوله ﷺ في الحديث القدسي أن الله ﷻ قال (خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين)[٢]، فالحديث الأول -قوله (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة...)- المراد بالفطرة الإسلام، والاعتراف بالله ﷻ ربا معبودا بحق، والقبولية لذلك، فالمراد بالفطرة هاهنا قبول الهداية بالقوة، وليس بالفعل، أي ما

[١] أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨)
[٢] أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

من مولود إلا ويولد على البيضاء حنيفا، (خلقت عبادي حنفاء) والحنفاء جمع حنيف، والحنيف هو المائل، من الشرك إلى التوحيد، أو المائل من الكفر إلى الإيمان، حنيف متبع للحق، بعيد عن الضلال والباطل والكفر والشرك، قال ﷻ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ..۝٥﴾البينة، ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٣﴾النحل، وقال ﷻ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ۝١٢٠﴾النحل، فالمراد بالفطرة أي الاعتراف بالله ﷻ ربا، وأنه هو المعبود بحق، ومعنى الإسلام العام، وبمعنى الهداية بقوة، ومعنى الهدى بالقوة أي أنه قابل لذلك، فالنفس إذا تركت مذ أن خلقت، فإنها تنتهي إلى الهداية، وتعترف بالله ﷻ.

لكن هذا إذا لم تتعرض لها العوامل الخارجية، من وساوس النفس والهوى، ووساوس الشيطان، فإذا تعرضت لها قد تتغلب عليها، إذا لم تزود بالحق والهدى والرشاد والعناية والهداية والتعليم، فتنحرف من سبيل الحق إلى سبيل الضلال، فلا تعارض إذن.

أصل النفس البشرية تولد على الفطرة بالمعنى الذي ذكرناه، ولكن لولا العناية الربانية، وهداية الله ﷻ وتوفيقه، فإن النفس إذا تركت وحامت بها عوامل خارجية فإنها تؤثر فيها بالضلال.

فهذا معنى قوله (كلكم ضال إلا من هديته)، وهذا فيه إشارة إلى أن الهداية بيد الله ﷻ، والتوفيق بيده ﷻ.

ولهذا يسأل الله ﷻ أن يهديه، ومما علمنا النبي ﷺ من الأدعية طلب الهداية، فعلم الحسن بن علي رضي الله عنه أن يقول في صلاة الوتر في دعائه وقنوته (اللَّهُمَّ اهدني في من هديت..)[1] بل إن الله ﷻ أمرنا بطلب ذلك، فأوجب علينا قراءة سورة الفاتحة في الصلاة، وعلى قول جمهور العلماء أن قراءة الفاتحة في الصلاة ركن فيها خلافا للأحناف، وفي ضمن هذه السورة يقول ﷻ في الدعاء ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ۝٦﴾الفاتحة، أي اللَّهُمَّ اهدنا الصراط المستقيم، طلب الهداية من الله ﷻ.

[1] أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥) وابن ماجه (١١٧٨)، وأحمد (١٧١٨)

[لا غنى عن هداية الله]

(كلكم ضال إلا من هديته) لو ترك الناس حالهم فإن الشياطين تجتالهم، وتوسوس لهم وتحرفهم عن دين الله، وتترصد لهم، وهذا عهد أخذه الشيطان على نفسه ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ..﴿١١٩﴾﴾النساء، وقال ﴿..لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ص، وقال ﴿..لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾الأعراف، وقال ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾الحجر، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾الأعراف، فهو يترصد للنفس، والتوفيق بيد الله ﷻ، والهداية بيد الله ﷻ.

ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يحس أنه مستغنٍ عن الله ﷻ طرفة عين، ولهذا كان من أذكار الصباح والمساء التي علمنا إياها النبي ﷺ أن يقال (ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[1]، فلو وكلك الله إلى نفسك طرفة عين لتكالبت عليك العوامل، حب المال، ميل النفس، الهوى، الشهوات، الملذات، زخارف الدنيا، الشياطين من الإنس ومن الجن، وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ ذكر أن الله ﷻ أرسل جبريل فنظر إلى الجنة فقال **(وعزتك لا يراها أحد إلا دخلها)** ثم أمره أن يذهب فيرى النار فرآها ورأى فضاعتها فقال **(ما يراها أحد إلا فر منها ولم يدخلها)** فزينت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات، ثم رجع جبريل ونظر إلى الجنة فقال **(ما أظن أحدا يدخلها)** لما حيل بينها وبينهم من الصعاب، ونظر إلى النار فإذا هي قد حفت بالشهوات والملذات وما هو محبوب عند الإنسان فقال **(وعزتك ما أرى أحدا ينجو منها)**[2] -أو كما جاء في الحديث-.

فالإنسان دائما مفقر إلى الله ﷻ لا يستغني عن الله ﷻ طرفة عين، والله ﷻ هو الغني الغنى المطلق، والعبد فقير إلى الله ﷻ فقره ذاتي، قال الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾فاطر، ويقول الله ﷻ ﴿..إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾العنكبوت.

---

[1] أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٠٥)، والبزار (٦٣٦٨)، وابن السني في ((عمل اليوم والليلة)) (٤٨).
[2] نحوه أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٦٣)، وأحمد (٨٦٤٨).

(إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) الألف والسين والتاء في الفعل هو للطلب، استفعل طلب الفعل، (فاستهدوني) اطلبوا مني الهداية (أهدكم) يوفق عبده للهداية.

[الهداية وأنواعها]

والهداية على قسمين: هداية إرشاد وبيان، وهداية توفيق وإلهام:

١- **فأما هداية الإرشاد والبيان**: فالله ﷻ يهدي بها من يشاء، ويبينها تبارك وتعالى، وجعل هذه الهداية أيضا للأنبياء والرسل، وللعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، قال ﷻ ﴿..وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٢﴾ الشورى، ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٧٣﴾ المؤمنون، ﴿..وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ النحل، ﴿..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيْءٖ وَهُدٗى وَرَحْمَةٗ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾ النحل، فالنبي ﷺ يبين ويدل ويرشد ويهدي الناس هداية بيان ودلالة وإرشاد، يبين الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والإيمان من الكفر، والتوحيد من الشرك، والعبادة من غيرها، والسنة من غيرها، هذا يبينه ﷺ، وكذا العلماء، والله ﷻ أيضا قد هدانا هداية البيان والإرشاد، قال ﷻ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ النساء، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الناس على الفطرة ﴿..فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ.. ٣٠﴾ الروم، كل هذه من الدلالات ومن الإرشاد ومن البيان، فليس للعبد على الله ﷻ حجة يوم القيامة، كما قال ﷻ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ... ١٥٠﴾ البقرة.

٢- والهداية الثانية هداية التوفيق والإلهام، فالتوفيق بيد الله ﷻ وإلهام الصواب والتوفيق له بيده ﷻ، التوفيق للهداية والعمل الصالح واجتناب العمل السيء، والقيام بالطاعات، وترك السيئات والمنكرات بيد الله ﷻ، فلا أحد يستطيع أن يهدي هذا النوع من الهداية، وهو الذي نفاه الله ﷻ عن نبيه فقال

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ..﴿٥٦﴾﴾القصص، فالنبي ﷺ لا يمتلك هذا النوع من الهداية وهي هداية التوفيق، وهداية الإلهام للخير والحق، ولهذا النبي ﷺ يوم أنزل عليه ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ..﴿٩٤﴾﴾الحجر، ويوم أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾الشعراء، علا على جبل أبي قبيس ونادى في قريش وفي بني هاشم وفي بني المطلب أن ينجوا بأنفسهم، وأن يقوا أن أنفسهم النار، ولهم أن يسألوا النبي ﷺ ما شاؤوا من المال ولكن لا يملك لهم من الله شيئا، قال (سلوني من مالي ما شئتم، ياصفية عمة رسول الله، .. سلوني من مالي ما شئتم، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا)[1] إنما يمتلك هداية البيان والإرشاد، أما التوفيق فهذا بيد الله ﷻ.

فالعبد يطلب الهداية من الله، (كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) وهذا الشطر من الحديث، وما سيأتي فيه بيان أصل عظيم وهو افتقار العبد لربه ﷻ وغنى الله ﷻ الغنى المطلق التام الكامل، فالله ﷻ لا يحتاج إلى أحد، ولكن المخلوق لا يستغني عن الله ﷻ، وهذا معتقد عظيم، وأمر جليل لابد أن يقوم بالقلب، وهو أن يرى العبد من نفسه الافتقار إلى الله ﷻ، والحاجة إليه، والتذلل له والخضوع والانقياد، والإذعان لله ﷻ، هذا لابد أن يكون ويشعر به المؤمن فيزيده ارتباطا بربه ﷻ.

(كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) هذا يدل على أن الهداية بيد الله ﷻ، وعكسها أيضا بيده ﷻ يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، بيده الملك وهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾الأنبياء، ولكن أفعاله كلها توافق الحكمة، لا عبث فيها ولا نقص، وليس لأحد أن يعترض على الله ﷻ ولا أن يقول لما فعل لم فعلت؟ لأن أفعاله كلها موافقة لتمام الحكمة.

[طلب الرزق من الله تعالى]

قال (يا عبادي كلكم جائع إلا ما أطعمته فاستطعموني أطعمكم) هذا أيضا يدل على افتقار العبد لله ﷻ، وأنه في حاجة إلى أن يلجأ إلى الله ﷻ، كما قال ﷻ ﴿..فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾العنكبوت، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن

[1] أخرجه مسلم (٢٠٥)، والترمذي (٢٣١٠)، والنسائي (٣٦٤٨) واللفظ له، وأحمد (٢٥٠٤٤).

رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ الذاريات، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ طه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ فاطر، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ يونس، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ.. ﴿٣٢﴾﴾ إبراهيم، فالرزق بيد الله ﷻ وهو الذي يرزق العباد.

[تيسير أسباب الرزق]

وأما العباد وسعيهم وكدّهم فليس إلا سببا، ولابد من هذا السبب، والإطعام والرزق بيد الله ﷻ كما قال ﷻ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الذاريات، وقوله ﷻ ﴿..وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.. ﴿٥﴾﴾ الجاثية، فالرزق بجميع أنواعه لله ﷻ، فهو الذي يرزق، وهو الذي يطعم، وسعي الإنسان وكده وبحثه وجمعه للمال والطعام هذا من الأسباب، والموفِّق لذلك هو الله ﷻ والأدلة على ذلك أكثر من أن تُذكر، وأعظم من أن تحصى، وأنه ﷻ ييسر ويسهل للعباد الرزق من حيث لا يشعرون، ومن يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب.

لو أنك أتيت إلى أرض تريد أن تحفرها، وتثقبها بإصبعك ما استطعت، ولئن حفرت منها فإنك تحفر شيئا يسيرا، ولكن تضع البذرة فيها وتغطيها وتسقيها، فتجد عروقها قد وصلت في داخل الأرض ما وصلت، مع خفة تلك العروق والجذور، من الذي يسر لها ذلك؟ ومن الذي جعل تلك القبولية وأطلع هذا الرزق؟ كل هذا بيد الله ﷻ وإذنه، وتيسيره. (يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم) هذا افتقار إلى الله ﷻ.

وأيضا (كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم) افتقار إلى الله ﷻ وسؤاله، ولهذا قال ﷺ (يسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله شسع نعله)[1] جاء عن السلف رحمهم الله أنهم كانوا يسألون الله كل شيء من أمور دينهم ودنياهم، يدعو الله ﷻ ويسأل ربه كل شيء، من الهداية وأمور الدين، ومن أمور الدنيا، تجارته وماله وأكله ورزقه، ولباسه، ومشربه، وغير ذلك.

(يسأل أحدكم ربه حاجته) لا يتكاسل عن السؤال، والله ﷻ خزائنه ملأى كما جاء في الصحيح قوله ﷺ (خزائن الله ملأى، لا يغيضها سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض لم يغض ذلك مما عنده شيء)[2] خزائنه ملأى عظيمة سل ما شئت، ولهذا لما قال عمر ﷺ للنبي ﷺ لمّا ذكر ذلك العمل الصالح وثوابه عند الله قال: إذن نكثر يا رسول الله؟ قال ﷺ (الله أكثر) فعنده من الخزائن العظيم والكثير، ويرزق جميع العباد ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾هود، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾العنكبوت، وقال ﷻ ﴿..فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ.. ۝١٧﴾العنكبوت، بجميع أنواعه، من المأكل والمشرب، (كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم) فهذا افتقار إلى الله ﷻ.

[الخطأ الذي هو معصية]

(يا عبادي إنكم تخطأون بالليل والنهار) هذه ضُبطت في أشهر الروايات (تخطئون) بضم التاء، وفي بعض الروايات بفتحها (تَخطأون)، أما (تخطئون) فهذا يدل على أن الفعل رباعي بضم التاء، لأنه عندك المضارع مفتوح الأول، إلا إذا كان رباعيا فإنه يضم، الماضي مفتوح الأول أبدا، أكلَ وكتبَ وصلى وزكّى وحجّ وقامَ وسافر وذهب وجاء وراح وغدا..الخ مفتوح الأول أبدا، المضارع مفتوح الأول إلا ماكان رباعيا، فإنه يضمّ أوله، أما الثلاثي والخماسي والسداسي -وهذا أقصى ما يكون عليه الفعل- فهي

[1] أخرجه الترمذي (٣٦٠٤)، والبزار (٦٨٧٦)، وأبو يعلى (٣٤٠٣).
[2] أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

مفتوحة الأول، تقول (كَتَبَ) ثلاثة أحرف مضارعه (يكتب) إذا كان خماسيا (انطلق) مضارعه (ينطلق)، إذا كان سداسيا (استهدى) مضارعه (يستهدي)، (استخرج) (يستخرج) مفتوح الأول.

إذا كان الماضي رباعيا (أكرم) فالمضارع (يكرم)، (أخطأ) مضارعه (يخطئ) و (أنت تُخطئ) فعلى الرواية المشهورة (إنكم تخطئون بالليل والنهار) فـ(تخطئون) مضارع (أخطأ) ومعنى (أخطأ) أي لم يُصب الصواب، حاد عنه، لم يوافقه.

ولكن على رواية (إنكم تَخطأون) بفتح التاء يصير ماضيه ثلاثيا، (خَطِأَ) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ الحاقة، الخاطئون الآثمون، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ.. ۝٨١﴾ البقرة، معصيته، إثمه، سيئته، وقوله ﷺ فيما رواه مسلم (لا يحتكر إلا خاطئ آثم) فهنا معنى (تخطأون) أي تعصون، وتؤثمون، وتسيؤون، تقعون في الإثم والسيئة والمعصية، هذا المراد، والمعنى يجتمع لأن (تخطأون) أي تقعون في الإثم، و(تخطئون) تخالفون الصواب، لكن الخطأ تخطئ من أخطأ أعم، لأن من أخطأ لا يلزم بالضرورة أن يؤثم، خالف الصواب، قد يؤثم وقد لا يؤثم.

ويذكر العلماء في كتب الأصول من موانع الأهلية الخطأ أو الجهل، فيخطئ، مثل الرجل الذي دخل يصلي مع النبي ﷺ فعطس أحدهم فقال: يرحمك الله، لم يأثم مع أنه أخطأ، ولكن المقصود من (إنكم تخطئون) أي تخالفون ولا توافقون الصواب ولا تخالفونه، و(تخطأون) تعقون في الإثم، فيؤخذ من معنى (تخطئون) ما يدل على معنى خَطِئَ أي أثم، والمراد أنكم تقعون في الإثم والمعصية.

[ضعف الإنسان وجهله]

(بالليل والنهار) وهذا يدل على ضعف الإنسان، وهذا أصل فيه قال ﷻ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ الأحزاب، هكذا الإنسان فيه الظلم والجهل، فالجهل المنافي للعلم، والظلم والبغي والاعتداء المنافي للعمل الصالح والتزكية، فهذان وصفان في الإنسان، ولهذا جاءت الرسل بضدّهما ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ.. ۝٣٣﴾ آل عمران، وقوله ﷻ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾آل عمران، فالكتاب، وتعليم الحكمة، هذا يزيل الجهل.

قال العلماء: إن من أوليات ما يستشعره طالب العلم في طلبه للعلم بعد أن يكون مخلصا لله ﷻ لأن هذا من أعظم العبادات -طلب العلم- أن يكون قصده ونيته أن يرفع الجهل عن نفسه وعن غيره، هذه بآيات الكتاب والحكمة (وَيُزَكِّيهِمْ) التزكية هي التي تُذهب الظلم، ولهذا لابد أن يورّثك العلم العمل.

وبهذا يتضح معنى قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(لو تدبر الناس هذه السورة -سورة العصر- لكفتهم)** ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾العصر، هذه الصفات الأربع هي تتضمن ما أرسل الله به الرسل (يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ) وفيها ضد الصفتين الموجودتين في الإنسان -الظلم والجهل- (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) الإيمان يستدعي العلم، هذا ضد الجهل (وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) العمل الصالح ضد الظلم، (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ) هذا العلم الذي هو ضد الجهل لا يبقى عنده بل يوصي غيره به، فيرفع الجهل عن نفسه وعن غيره، (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ) أي أنه يعمل بالعمل الصالح، ويدعو الناس إليه، وما من داع إلا وهو معرض للأذى.

ولهذا في وصية لقمان ﷺ قال ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾لقمان، لم يقل: أقم الصلاة واصبر، لأنه إذا أمرت ونهيت ستؤذى، لابد من صبر، إذن (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ) ذكر هنا لازم الفعل، أي: مروا الناس بالعمل الصالح، واصبروا على أذاهم.

(إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا) فالإنسان يخطئ ويقصر، وهذا أصل فيه، ولهذا رحمنا الله ﷻ، وكان من أسمائه وصفاته التوبة، وأنه يتوب، وأنه التواب، وأنه اللطيف، والرؤوف، والرحيم، والغفور، والغفار، وغافر الذنب، وأنه قابل التوب، وأنه الكريم، السخي، الجواد، وأنه خبير بصير سميع، فيعلم حقيقة عباده، وإذا وقع الخطأ وتاب العبد تاب الله ﷻ عليه، فأصل الإنسان أنه يخطئ، ما

من أحد إلا ويخطئ، لكن ليس العيب فقط في الخطأ، بل أشد منه التمادي فيه، ومن أخطأ وتاب تاب الله عليه قال ﷻ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ طه.

[سعة مغفرة الله تعالى ورحمته]

فأصل الخطأ والتفريط والتقصير في الإنسان، فيرجع إلى الله ﷻ (إنكم تخطئون بالليل والنهار) هذا موجود في الإنسان، فليرجع إلى ربه (وأنا أغفر الذنوب جميعا) قال ﷻ ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ الزمر، كل الذنوب يغفرها الله ﷻ للتائب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ..١١٦﴾ النساء، لا يغفر للمشرك إذا مات مشركا، فإن تاب تاب الله عليه، وكم من مشرك عاند النبي ﷺ وقاتله وحاربه، وترصد به، فلما تاب وأسلم تاب الله عليه بل صار في خيرة الناس، ومن صحابة رسول الله، فلا يُذكر اسمه إلا وهو مقرون بـ (**رضي الله عنه**) إخبارا وإنشاء، فتخبر لأن الله تعالى قال ﴿..رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ..٨﴾ البينة، وتدعو لهم أيضا بذاك الرضا، لأنه أعظم ما يعطيه الله للعباد - مع ذلك أيضا النظر إلى وجه الله ﷻ الكريم-.

فهذا الأمر وهو التوبة، واستغفار الله ﷻ يدل على افتقار، ورجوع إلى الله ﷻ (إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا) كل الذنوب يغفرها الله ﷻ ما عدا الشرك إذا مات صاحبه عليه، فإن تاب تاب الله عليه، إذا تاب المشرك والكافر من شركه وكفره تاب الله عليه، وسائر الذنوب يغفرها الله ﷻ، ولكن بحسب ما عند العبد كما هو مقرر في بابه، فالمعاصي يغفرها الله ﷻ ولكن بحسب ما عند العبد، وأسباب المغفرة كثيرة: تجاوز الله ﷻ، شفاعته ﷺ، شفاعة الأنبياء والرسل، شفاعة العلماء والصلحاء والأتقياء، العمل الصالح للعبد، حسناته، المصائب والمتاعب التي تصيبه في الدنيا، أهوال يوم القيامة، ما يكون في أهوال القبر، والدعاء والاستغفار، والتوبة والإنابة، هذه عشرة أسباب من أسباب المغفرة كما ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فمنها ما يرجع إلى الله تعالى، ثلاثة منها، وأربعة ترجع إلى العبد نفسه، وأربعة ترجع إلى الناس.

قال (**وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم**) اطلبوا مني المغفرة، فالله ﷻ يغفر الذنوب، وأصل المغفرة في اللغة من الغفر، وهو الستر، ومن ثم سمي ما يوضع على الرأس ليحميه في ميدان القتال، يسمى المغفر، لأنه يستر الرأس، فأصل الغفر الستر، فالغفور: الذي يستر على عباده أعمالهم وذنوبهم ويتجاوز عنها فيمحوها، وإذا اقترن اسم (الغفور) بـ(الرحيم) فكان الغفور هو الذي يستر على العباد، والرحيم الذي يتجاوز عن السيئات.

نسأل الله جل وعلا أن يعمنا جميعا بعفوه ومغفرته.

لعلنا نكتفي بهذا، ونتم في درس لاحق.